لا مؤاخذة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كنت أعرف رجلاً طيب القلب بلغت منه طيبة القلب مبلغاً عظيما . فكان يحب الخير ولا يميل إلى الأذى ، ويعف عما فى أيدى الناس ، ويعطيهم مما فى يديه أكثر مما كان ينبغى له ، حتى إنه كان يحب أحياناً أن يولم لبعض أصدقائه وليمة فلا يجد ما يولم لهم به من المال فى كفه ، فيدفعه حرصه على إرضائهم إلى أن يؤذى نفسه فى سبيل ذلك الرضا ، فقد استدان مرة بضعة جنيهات من صديق له وأولم فى اليوم التالى لبعض أصدقائه وليمة لذيذة ، وأبى عليه كرمه أن يهمل صديقه الذى استدان منه فدعاه إلى الحضور ، وكانت فكاهة الأصدقاء بنيأ الوليمة والدين الذى ركب صاحبها من ورائها سبباً فى شحذ شهوة الطعام فى الجمع حتى لم يبقوا على شىء من ذلك الطعام اللذيذ

غير أن هذا الرجل الطيب كان فيه عيب واحد لا أعرف فيه عيباً سواه ، وهو أنه كان يعنى عناية عظيمة برأى الناس فيه ، فلا يكاد يسمع من أحد مدحاً فى نفسه حتى يثور طربه ، ويهتز للمديح اهتزاز الغصن الرطب فى الريح ، وقد تدفعه الأريحية عند ذلك إلى الخروج عن طاقته فى جزاء المادح ؛ وأما إذا هو سمع أحداً يذمه ولو ذماً ضئيلاً ، فانه لا يتمالك نفسه من الغضب ، وقد تكون غضباته مضرية هائجة ، ولولا إنه من الثابتين المطمئنين إلى حكم القانون ، لكان لا يرى شيئاً يغسل عنه معرة الذم ، إلا أن يراق فى سبيلها الدم . وقد عرفت أنه سمع مرة أن بعض الناس يقبحون فيه ويذمونه بأنه يأكل فى بيته الثريد بأصابعه الخمس ، وأنه ما يكاد يصل إلى بيته حتى يخلع ثيابه المحترمة ، ويلبس لباساً ساذجاً مما يلبسه عامة الناس من طبقات الفقراء ، فيضع على رأسه لبدة بيضاء من الصوف الخشن ، ويلبس فى رجله قبقاباً من الخشب الثقيل ، ويلبس على جسمه جلباباً من القطن الرخيص ، فما كاد يسمع ذلك القول حتى ثارت ثائرته ، وجعل يصيح فى الحاضرين بأعلى صوته واصفاً ما يلبس وما يأكل ، مجتهداً أن يطلع الناس على حاله فى بيته ، وعلى ما هو عليه من تمتع بأقصى ما يتمتع به المتحضرون المتأنقون ؛ ولعله قد لاحظ شيئاً من التردد بين سامعيه فى تصديق أقواله ، فجعل يزيد فى التأكيد حتى بلغ الأمر منه أن جعل يقسم لهم بجهد الايمان ، ولما أحس مع كل ذلك أن السامعين فيهم العاند والمكابر ، اتخذ خطة عملية حازمة لبيان صدق قوله . فقد حلف على الجميع وعزم أشد العزيمة أن يزوروه فى منزله فى صباح الغد ليقيموا عنده النهار أجمعه فيطلعوا على أسلوب حياته معاينة واختباراً . ثم ذهب من فوره إلى أقرب أصدقائه إليه ، وأوثقهم مودة عنده ، وأملهم جيباً . فاستدان منه مايستعد به لحفلة الغد ، ولم ينس أن يدعوه فى المدعوين لشهود ما هو على نية إظهاره وإجلائه

ولكن لا يظنن أحد من القراء أنني أصف هذا الرجل لأنه ممن يستحق العناية الخاصة لميزة فى شخصه ، أو لمكانة له بين الناس . فانما أنا أسوقه مثلاً لقوم فى مصر يريدون أن يُقحموا البلاد فى مثل ما تورط فيه صاحبنا هذا . فمثلاً قد تكرر ما قال القائلون من الدعوة لمصر فى الخارج ، وما صاح الصائحون من وجوب إظهار أهل الغرب على ما نحن عليه من رقى وتحضر ، وهم لا يضنون على ذلك السعى بالمال مهما عظم مقداره ، والحق إنى أعطف أشد العطف على وطنية هؤلاء وسلامة طويتهم . فمثلاً قد ذهب أحد المصريين إلى مؤتمر من المؤتمرات ، وكان بطبيعة الحال لابساً بذلة من البذلات الرسمية الوجيهة ، فقال عليه جاره وكان من ممثلى بعض دول الغرب فسأله عما هو صانع ببذلته تلك بعد انصرافه من المؤتمر . وأغلب ظنى أن ذلك الزميل الأوربى المحترم قد ظن فى الممثل المصرى أنه لا يكاد ينفلت من المؤتمر حتى يرمى بتلك البذلة فوق أقرب شجرة من شجر الجميز إذا بلغ الطريق المؤدية إلى عاصمة بلاده ، وهو راكب جملاً قوياً يحمله فى سفره ، ثم يقف تحت تلك الشجرة ينتظر مرور أول وعل من وعول الجبل فيرميه بسهم من قوسه الشديدة ، ويسلخ عنه جلده ، وينشره فى الشمس يوماً أو بعض يوم ، ثم يلبسه بدل بذلته الرسمية . ثم يتابع سيره نحو العاصمة لمقابلة أولى الأمر فيها ، وإبلاغهم نتيجة بحوث المؤتمر الذى كان يمثل بلاده فيه . لعل ذلك الزميل قد حسب هذا ، ولا بد أن الممثل المصرى قد تصور هذا الظن ، ورأى فيه مساساً عظيماً بكرامته وكرامة بلاده

فغضب له ، وجاء يشكوه لبني وطنه ليظهر لهم مقدار جهل الناس بحقيقتهم ، وقد سمع هذا القول طائفة من الناس فغضبوا له غضباً شديداً ، وجعلوا يطالبون بأن تبذل الحكومة من أموال الشعب بضع مئات من الوف الجنيهات الذهبية لكي تنظم دعوة لاطلاع أهل الغرب على حقيقة أمر الشعب المصري

وإنني لا أرى مانعاً يمنع من بذل المال ، ولا من القيام بدعوة في سبيل مصر ، فكل شيء في خدمة مصر هين ، وكل قصد الحياة هو خدمة مصر

ولكني مع ذلك أحب أن تتجه الدعوة نحو قصد مخالف كل المخالفة لما يريد هؤلاء السادة أن يدعوا اليه . ولا يسعني إلا أن أعتذر لهم وللقراء عن هذه المخالفة التي قد تغضبهم متى وصفت لهم حقيقتها ، ولا أجد شيئاً أقدر أن أعتذر به اليهم إلا أن أقول لهم : « لامؤاخذة » ، فان هذه الكلمة كلمة سحرية ، وقد جربت أثرها في مختلف المواقف ، فوالله ما خانني سحرها يوماً ، ولا خذلني نصرها في ساعة من ساعات الشدة . فكم وطئت على أقدام في الزحام وقت الزحام ، فلما رأيت ثورة الذي وطئت قدمه أسرعت وتلفظت بذلك الطلسم ، فاذا وجهه تشرق عليه ابتسامة عريضة ، ويهز رأسه لي ، كأنما هو يعتذر عما ظهر على وجهه من التجهم في أول الأمر . وكم أخطأت فلم ينجني من تبعة الخطأ إلا هذا اللفظ المبارك ، وكم خرجت عن حدود اللياقة ونفذت الى العفو الفسيح من مداخل هذا اللفظ البديع . فلا مؤاخذة أيها السادة إذا كنت أعتقد أن خير مصر ونفع الوطن في أن نبذل بضعة آلاف أو بضع مئات من الآلاف من جنيهات الذهب ، على أن يقوم جماعة من المخلصين لمصلحة هذه البلاد بدعوة في شعوب العالم أجمع ، يعلون فيها من ذكر مصر ، بأن يصفوا أهلها بالتوحش والغلظة ، وينعتوهم بأقبح النعوت وأبشع الصفات — وحبذا يوم يعتقد فيه شعوب أوربا وأمريكا أن المصريين لا يلبسون إلا جلود النمور والأسود ، ولا يعرفون من المساكن إلا الكهوف والأدغال ، وأن لهم قسياً قوية وسهاماً مسمومة ، وأنهم يقفون لأعدائهم تحت الصخور ووراء الجذوع ، فيسددون اليهم سهاماً مُصْمية لا ينجو أحد من جراحها ، وأن الذي يدخل بلادهم لا يلقى إلا مشقة ، ولا يرتاح في حل ولا ترحال . وأن المصريين يأكلون لحم الحيوان بغير نضج ، فاذا لم يجدوا من لحوم الحيوان شيئاً أشبعوا الجوع بما يجدونه قريباً منهم من اللحم ، ولو كان آدمياً ؛ وأنهم حديدو الأسنان ، حُمْشُ الساقان ، خُزْرُ العيون ، قبيحو الخلقة . أقول هذا «ولامؤاخذة» فان تلك الدعوة عندي آثر وأحب ، وأثرها في ظني أبلغ في إجلال القوم لنا ومراعاتهم لحُرَمنا . فان الناس على حضارتهم لم يزيدوا بعد على أنهم متوحشون ، قد طلوا ظاهرهم بطلاء من الفضة أو الذهب ، وأما باطنهم فلا يزال فيه الحيوان البري الذي يخشى القوة الوحشية خشية أعظم من تقديره لفضائل الفلسفة

وإنها لأهانة لا تعدلها إهانة أن يذهب نفر من أهل مصر ليعلنوا في ملأ الشعوب الأخرى أن شعب مصر يلبس اللابس المتادة ، لا جلود الحيوان ، وأنه يأكل الخبز والطعام ، لا لحوم البشر ولا المن والجراد . أما أنا فيمين الحق إنه لأحب الى أن يذهب الناس عني قائلين إني متوحش ، أو إني جاهل ، أو إني غر ، أو إنني من أكلة لحوم الانسان ، من أن أكلف نفسي أن أبين لهم أنني لست كما يزعمون . لا بل إنني أحسب أنه لو ظن الناس في مثل هذه الظنون لكان هذا مبعث فكاهة لنفسي أنعم بها وحدي وأنا أتأمل مقدار جهل هؤلاء الناس بي ، وضلالهم في معرفة حقيقة أمري

ولعل أهل الغرب إذا فشت فيهم عقيدة أننا من لابسي الجلود وآكلي اللحوم النيئة ، حملهم ذلك على بعض التحرز في معاملاتنا ، وبعض الخشية من أنيابنا

ولا مؤاخذة ! ! . . .

محمد فريد أبو حديد

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

ترجمها الاستاذ احمد حسن الزيات

ثمنها ١٥ قرشاً